الفصل السابع عشر

أسبوع تساقط الطائرات

- ☐ مصر تسقط ١٥ طائرة فانتوم وتأسر ٩ طيارين إسرائيليين أحياء
- ☐ وزير الخارجية الأمريكى يكذب كيسنجر علنا..
- ☐ كيسنجر يقول:
  سأقطع رقبة سيسكو!
- ☐ هستيريا فى إسرائيل ومائير تطلب من أمريكا والأطلنطى التدخل لإخراج السوفيات من مصر

obeikandl.com

فى الوقت الذى كانت فيه وزارة الخارجية الأمريكية تسير سيرا حسيسا فى دعم مبادرة روجرز وإعطاء مصر إيضاحات كاملة عنها مع تعهدات رسمية.. فى نفس الوقت بل فى نفس هذا اليوم كان هناك طرف آخر داخل الإدارة الأمريكية يحاول تخريب ما يجرى.. ففى ٢٦ يونيو، وربما فى نفس لحظة اجتماع سيسكو مع رياض، وصل شعور هنرى كيسنجر بالاكتئاب مما يجرى فى السياسة الأمريكية الجديدة فى الشرق الأوسط إلى درجة التهور.

ففى اجتماع عقده كيسنجر مع الصحفيين قال لهم: «إننا بصدد محاولة التوصل إلى تسوية على النحو الذى يكفل تقوية نظم الحكم العربية المعتدلة، وليس النظم الراديكالية»- يقصد مصر- وقال كيسنجر أيضا: «إن النوايا المبدئية للاتحاد السوفيتى من مساعدة مصر (عسكريا) لا علاقة لها بإيمانه هو- أى كيسنجر- بان الوجود المستمر لقوات سوفيتية (فى مصر) يمثل تهديدا استراتيجيا للولايات المتحدة».

ثم أضاف كيسنجر بعد ذلك جملة متهورة قدر لها أن تثير عاصفة دولية على الفور، لقد قال: «إننا نحاول القيام بطرد السوفيات من مصر».

وكيسنجر يعرف مقدما خطورة لعبة التخريب التى يمارسها ضد «مبادرة روجرز» وهى ما تزال فى بدايتها، ولذلك فهو يرجو الصحفيين عدم نشر ملاحظاته تلك إلا بعد أول يوليو، وحتى فى تلك اللحظة فإنه يشترط عليهم ألا ينسبوها إليه أبدا.

والذى حدث أنه لم ينشر تلك التصريحات سوى صحفى واحد، هو موراى مارد فى (الوشنطن بوست) بتاريخ ٢ يوليو، حيث بدأ قصته الإخبارية بقوله: أصبحت إدارة الرئيس نيكسون مقتنعة الآن بأن القوات الجوية السوفيتية المقاتلة يجب طردها من مصر قبل أن تصبح نقطة انطلاق للسيطرة السوفيتية على البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط فى المدى الطويل.

وعلى الفور انزعج حلفاء الولايات المتحدة فى أوربا الغربية من هذا التشخيص المتهور الخطير، فضلا عن عدم صحته، إلى الدرجة التى جعلت البيت الأبيض يصدر على الفور بيانا يقول فيه: إن الموقف الامريكى هو أن الطائرات والطيارين السوفيات (فى مصر) يجب إخراجهم بالوسائل الدبلوماسية، وليس العسكرية.

إن الجميع اكتشفوا بالطبع أن كيسنجر هو الذى أدلى بتلك التصريحات، وظل كيسنجر يقاطع الصحفى الذى نشر القصة لمدة سنة بعدها تحدث قائلا: لقد جعل منى أضحوكة العالم!

وفيما بعد، حينما عقد وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى مؤتمرا صحفيا فى لندن يوم ١١ يوليو تنصل علنا ورسميا من آراء كيسنجر قائلا: (إن الولايات المتحدة لم تفكر مطلقا فى طرد الروس من الشرق الأوسط).

ووقتها بدا هذا التعليق من روجرز متسما بالجرأة والتحدى بالنسبة لكل من يعرفون خفايا صراعات السلطة بينه وبين كيسنجر فى واشنطن، ولأن الرئيس نيكسون يساند روجرز فى سياسته فى الشرق الأوسط، فقد تدفق هذا الشعور بالثقة خلال ذلك الصيف من وزير الخارجية إلى باقى المستويات التالية فى وزارة الخارجية، فجوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الذى يبدو دائما مذعنا للأقوى ومسايرا لاتجاه الريح، بدأ (بغير الأحصنه) على حد تعبير مساعد كيسنجر السابق، وبالتالى بدأ يتجاهل كل التوصيات والاقتراحات التى يرسلها إليه كيسنجر من خلف ظهر وزير الخارجية روجرز فيما يتعلق بالمفاوضات مع مصر وحول وقف إطلاق النار.

سأقطع رقبة سيسكو!

وأدرك كيسنجر على الفور أن محاولاته لتخريب (مبادرة روجرز) غير مجدية، وكان يعبر عن ثورته وغضبه بالسير حول مكتبه والهذيان بطريقة مسرحية قائلا: لو قدر لى مطلقا أن أصبح وزيرا للخارجية، فإن الدماء سوف تسيل فى الطرقات.. وأول من سأقطع رقبته هو سيسكو!

لكن الوقت كان لا يزال مبكرا لاختبار تلك التهديدات المضحكة من كيسنجر، أما الآن فإن جوزيف سيسكو يستمد جرأته من إحساسه بقوة رئيسه الذى يتمتع بالدعم الكامل من نيكسون، وهذا هو الذى يفسر تلك التعهدات القاطعة والصريحة التى يبلغها باسم الحكومة الأمريكية إلى محمد رياض فى ٢٦ يونيو.

والواقع (أن كل هذا الدفع والإكراه لم يكن له أى تأثير على المصريين).. كما أثبتت حرب الاستنزاف، والآن لن يكون للوعود أيضا تأثير فى المصريين، لأن الشىء الوحيد الذى أصبحوا يثقون فيه هو قواتهم المسلحة، فى تلك الفترة كان جمال عبد الناصر فى زيارة إلى ليبيا، من المقرر أن يعود بعدها إلى القاهرة لفترة قصيرة، قبل أن يسافر إلى الاتحاد

السوفيتى فى رحلة مقررة من قبل لمتابعة الإمدادات الجديدة من الأسلحة، وفى خطابه الذى ألقاه يوم ٢٥ يونيو فى بنى غازى بليبيا، والذى أشار إليه الرسميون الأمريكيون عدة مرات، أكد عبد الناصر موقف مصر الثابت من ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة، واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى، و (إننا فى مصر نتعرض كل يوم لغارات جوية تقوم بها ما بين ٨٠ طائرة و ٢٠٠ طائرة فى اليوم الواحد، ولكننا مع هذا لن نستسلم أبدا).

وقال جمال عبد الناصر: (إن الإسرائيليين يركزون غاراتهم الآن على منطقة القناة حتى لا يمكنوا الجيش المصرى من أن يعبئ قواته ويحشد جهوده عبر القناة ويهاجم، ولأنهم يعلمون أن الجيش المصرى قد استكمل تدريباته للعبور، فإذا وجد الفرصة حتى يحصل على تعادل جوى فلن تمنعه قوة من العبور).

أما بالنسبة لمبادرة روجرز الأخيرة، التى تم إبلاغها إلى مصر وعبد الناصر فى ليبيا، فقد طلب عبد الناصر من ست جهات محددة أن تدرسها وتتابعها وتحدد تقديراتها لها، وتلك الجهات هى: وزارة الخارجية- وزارة الحربية- المخابرات العامة- اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى- رئاسة الجمهورية- مجلس الوزراء.

تنسيق مصرى- اردنى

ومن البداية قام عبد المنعم الرفاعى وزير الخارجية الاردنى بإبلاغ القاهرة بنصوص الاتصالات الأمريكية معه، وأنه طبقا لتعليمات الملك حسين فإنه لن يرد رسميا على المبادرة الأمريكية إلا بعد التنسيق المسبق مع مصر، وفى السابع والعشرين من يونيو أعد محمود رياض وزير الخارجية مذكرة، من خلاصة ست مذكرات أعدتها أجهزة وزارة الخارجية ومصنفة على أنها (سرى للغاية) للعرض على الرئيس جمال عبد الناصر، وقد خلص محمود رياض إلى أن وليم روجرز يدفع إسرائيل فى تصريحاته إلى (قبول الانسحاب وان تكون المفاوضات غير مباشرة).

وبعد أن وضعت الخارجية المصرية كل الاحتمالات المحيطة بهذا التحرك الأمريكى، انتهى رأيها إلى أنه: (لا يحتوى ردنا على أمريكا على رفض الخطوة الأمريكية، وإنما يحتوى على موافقة إجمالية بالنسبة للخطوات التى تتعرض لنشاط جونار يارنغ، والانسحاب من جميع الاراضى العربية) و(تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين)

الفلسطينيين.. وأن يستهدف الرد المصرى على الولايات المتحدة (إحراج إسرائيل وعزلها عن أمريكا ومحاولة جذب الولايات المتحدة إلى جانبنا، أو على الأقل منعها من تزويد إسرائيل بالأسلحة وخلق جو من الخلافات بين أمريكا وإسرائيل).

أما وزارة الحربية فكان تقديرها هو ضرورة الحصول على أطول وقت ممكن قبل الموافقة على وقف إطلاق النار المؤقت، حتى يمكن استكمال نقل شبكة الصواريخ إلى المواقع المقررة لها فى أقرب خط بامتداد قناة السويس.

ولأن مفتاح الموقف كله، فى رأى عبد الناصر، سيتوقف على القدرة العسكرية المصرية وتعديل ميزان القوى قبل أى حديث، فقد أصبح القرار هو الاحتفاظ بسرية التنسيق العسكرى مع الاتحاد السوفيتى أولا، واستكمال بناء حائط الصواريخ ثانيا.

أما الآن، ولثلاثين يوما تالية، فإن القاهرة الرسمية سوف تمتنع تماما عن أى تعليق- سلبيا أو إيجابيا- على المبادرة الأمريكية.. مكتفية فقط برصد الموقف فيما بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وهنا كان الموقف، كما توقعت وزارة الخارجية المصرية تماما، هو الأزمة الكاملة.. والمتفجرة.

إسرائيل وصدمة المفاجأة

إن دور إسرائيل فى هذا التحرك الامريكى الجديد بدأ حينما تم استدعاء إسحاق رابين السفير الإسرائيلى فى واشنطن ليقابل وليم روجرز وزير الخارجية، وذهب رابين متوقعا أخبارا سارة تتعلق بإمدادات الأسلحة، ففى الأسابيع الثلاثة الأخيرة كان أبا ايبان وزير الخارجية يلاحق سفيره فى واشنطن ببرقيات تطلب منه العمل على استكشاف (ما الذى يجرى تخطيطه على المستوى السياسى).. لكن رابين كان يرد دائما بأنه طالما أن الرئيس نيكسون قد وعد من قبل بالتشاور المسبق مع إسرائيل، فلا داعى للملاحقة.

ولكن إسحاق رابين دخل إلى مكتب وليم روجرز لكى يخبره وزير الخارجية بهذه المبادرة الأمريكية الجديدة، وأنه يجرى تسليمها إلى مصر والأردن فى نفس اليوم، وصعق السفير الإسرائيلى الذى اعتقد من خلال علاقته الحميمة مع كيسنجر بأنه عليم بمواطن الأمور فى واشنطن، لكن روجرز ما يزال لديه المزيد ليخبره به، لقد قال له بلطف: إن إمدادات السلاح الامريكى لإسرائيل سوف تتوقف على ورود رد إيجابى من إسرائيل بشأن المبادرة.

وحاول السفير الإسرائيلى أن يعترض على هذا الربط الذى يتم لأول مرة بين إمدادات السلاح الامريكى والتحرك السياسى، ولكن كلماته (لم تترك أى انطباع له قيمة على روجرز).

وفى إسرائيل كان أبا ايبان وزير الخارجية عائدا لتوه من رحلة فى أوربا الغربية فأخبره المدير العام للوزارة، فى المطار، بأن السفير الامريكى فى تل أبيب، والوورث باربور، مجتمع الآن مع رئيسة الوزراء غولدا مائير فى منزلها، حاملا إليها رسالة من الرئيس ريتشارد نيكسون، وبالطبع توجه ايبان على الفور إلى منزل رئيسة الوزراء.

إن مائير كانت قد رفضت قبل يومين تلك المبادرة الأمريكية بمجرد إبلاغها بها، مقررة أن مجلس الوزراء سيرفضها بالكامل، والآن فإن الرئيس نيكسون، فى رسالته هذه إلى مائير يطلب منها ألا ترفض المبادرة الأمريكية قبل ورود رد من مصر والأردن، وأنه فى جميع الأحوال يتوقع من إسرائيل ردا ايجابيا.

لكن غولدا مائير كانت تدرك تماما معنى تلك المبادرة الأمريكية، إنها تنفيذ لخطة روجرز التى رفضتها إسرائيل رسميا وعلنا فى ديسمبر الماضى لأنها تعنى الانسحاب الإسرائيلى الكامل من سيناء والضفة الغربية، والمبادرة ترفض صيغة المفاوضات المباشرة التى تحلم بها إسرائيل كمظهر لفرض إرادتها على مصر، والمبادرة تربط لأول مرة بين إمدادات الأسلحة الأمريكية وبين التحرك السياسى لإسرائيل، صحيح أن المبادرة تقتضى وقف إطلاق النار مع مصر، وهو ما كانت إسرائيل تحث عليه الولايات المتحدة فى الأشهر الأخيرة، وخصوصا منذ بدأت شبكة الصواريخ المصرية الجديدة فى العمل، ولكنه وقف لفترة مؤقتة، وليس دائما كما تريد إسرائيل.

رابين ينصح مائير بعدم الرفض

وبعده بثلاثة أيام بعثت غولدا مائير بمسودة ردها على رسالة نيكسون إلى سفيرها فى واشنطن تطلب منه التعليق، ويقول إسحاق رابين إنه بمجرد أن قرأ مشروع الرد (تجمدت من الرعب.. إن رئيسة الوزراء ترفض المبادرة نهائيا، وبلا غموض، وبعثت إليها ببرقية، متوسلا ألا تبعث بهذا الرد، مقترحا عليها استدعائى إلى إسرائيل فورا لكى أشرح لها وجهة نظرى، وبمجرد وصولى عقدت ومع عدد من الوزراء جلسة طويلة، حيث نصحت بالاكتفاء بما قالته رئيسة الوزراء للسفير الامريكى شفويا، وأصرت غولدا مائير على أنها

يجب أن ترد على رسالة الرئيس كتابة، ولكنها أخيرا أخذت برايى حول مضمون الرد، بعد أن حذفت منه رفضها لمبادرة روجرز.

ثم يضيف إسحاق رابين: «مع عودتى إلى واشنطن فى مساء ٣٠ يونيو وجدت أن هناك تطورا دراميا فى الجبهة العسكرية (مع مصر) نحى جانبا كل اهتماماتنا. فخلال الليلة السابقة تحرك نظام الصواريخ المصرى نحو خط جديد على مسافة ٢٠ كيلومتر غرب القناة، بل إن عددا من بطاريات الصواريخ، وبأطقم مصرية، تم تركيبة فى مسافة أقرب من قناة السويس- على الرغم من أن الصواريخ ذات الأطقم السوفيتية لم تعبر هذا الخط- أكثر من ذلك، فإن هجوما على شبكة الصواريخ المصرية لم يكن ناجحا، وخلال ذلك تم إسقاط طائرات فانتوم عديدة (بواسطة المصريين) لقد كان هذا موقفا جديدا تماما، ومحفوفا بالمخاطر بدرجة كبيرة».

وبناء على إلحاح إسرائيل، بما فيه استغاثات من موشى ديان، قال الرئيس نيكسون فى حديث تلفزيونى يوم ٢ يوليو: إنه يعتبر التحرك السوفيتى الأخير عملا هجوميا، وهو يحذر السوفيات بلهجة قوية من أن الشرق الأوسط منطقة «شديدة الخطورة كمنطقة البلقان قبل الحرب (العالمية) الأولى، وعلى القوتين العظميين أن تكونا شديدتى الحرص فى تصرفاتهما لمنع حدوث مواجهة لا يريدها أى منهما».

ولكن، لا السوفيات تأثروا، ولا المصريون توقفوا عن التقدم بمواقعهم الصاروخية.

إسقاط ١٥ طائرة إسرائيلية فى أسبوع

هكذا، وعلى حد تعبير إسحاق رابين من موقعه كسفير فى واشنطن، أصبحت «إسرائيل داخل قيد مزدوج بشكل مرعب، فمن ناحية كان المضمون السياسى لمبادرة روجرز غير مقبول لإسرائيل، على الرغم من أنها لم تقل ذلك بعد، ومع ذلك ففى نفس الوقت، لو أن المصريين رفضوا مشروع وقف إطلاق النار فإن طائراتنا ستكون عاجزة ومشلولة أمام شبكتهم الصاروخية التى زحفت أماما فى اتجاه القناة».

والآن فإن المصريين لم يرفضوا ولم يقبلوا- بعد- وقف إطلاق النار؛ إنهم فقط مستمرون فى التقدم بحائطهم الصاروخى أماما فى اتجاه القناة برغم التضحيات، إنهم فى سباق دائم مع الغارات الإسرائيلية الجوية المكثفة (وقد بلغت ٥٠٠ غارة فى شهرى يونيو ويوليو فقط) ولكن «التطور الدامى فى الجبهة العسكرية» الذى صدم إسحاق رابين

بمعرفته فى مساء ٣٠ يونيو فى واشنطن لم يكن بأقل من نجاح شبكة الصواريخ المصرية من تدمير ثمانى طائرات إسرائيلية قاذفة مقاتلة من طراز فانتوم وسكاى هوك، وفى ٢ يوليو أسقط المصريون ٣ طائرات، بعدها بثلاثة أيام دمروا طائرتين أخريين، وكلها من طراز فانتوم- أحدث ما أخذته إسرائيل من الترسانة الأمريكية- فقط أسقط المصريون لإسرائيل ١٥ طائرة خلال أسبوع واحد- سمى أسبوع سقوط الطائرات- بالإضافة إلى أسر تسعة طيارين أحياء.

وسجلت القوات المصرية غرب القناة حوارا باللاسلكى بين طيار اسرائيلى وزميله أثناء فرارهما عائدين بطائرتيهما: إن الصواريخ فى المنطقة كعش الغراب، كلما ضربنا واحدة ظهرت أخرى. إن المصريين زرعوا الأرض بالصواريخ غرب القناة.

هستيريا فى إسرائيل

وخلال الأيام التالية سوف تصبح القيادات الإسرائيلية فى حالة هستريا بسبب نجاح الشبكة الصاروخية المصرية الجديدة، إلى درجة أنه فى منتصف يوليو سوف تطالب غولدا مائير رئيسة الوزراء علنا فى حديث نشرته لها مجلة دير شبيغل الألمانية الغربية، بأن «تقوم قوات حلف شمال الاطلنطى والولايات المتحدة معا بإرغام الروس على الخروج من الشرق الأوسط، مواجهة شبيهة بأزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا سنة ١٩٦١» بحجة أن هذا هو فقط الذى سيردع المصريين وعبد الناصر!، ولكن عبد الناصر والمصريين فى تلك اللحظة لم تكن لتروعهم أى تهديدات- باطلنطى أو غير اطلنطى- عن التقدم بشبكتهم الصاروخية نحو القناة موقعا بعد موقع، وفى ٢٨ يونيو، عشية سفر عبد الناصر إلى موسكو فى رحلته المقررة من قبل، طلب دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة، مقابلته لإبلاغه برسالة آلية قادمة من واشنطن، ولم يقابله الرئيس جمال عبد الناصر، فاجتمع بمحمود رياض وزير الخارجية.. حيث أبلغه أن الوقت الآن مناسب جدا للبحث عن حل سلمى حقيقى، وأن أمريكا هى الدولة الوحيدة التى يمكنها أن تمارس ضغطا على إسرائيل». ولذلك فإن الولايات المتحدة ترجو من مصر أن تترك لها «حرية اختيار الأسلوب المناسب» وأنه نظرا لاهتمامات مصر بالتسوية الشاملة فإن المبادرة الأمريكية «لا تستبعد سوريا، إذ يكفى أن تعلن سوريا عن قبولها لقرار مجلس الأمن، وحينئذ يمكن إدخالها فى موضوع التسوية».

عبد الناصر فى موسكو

وأصبحت رحلة عبد الناصر إلى موسكو فى ٢٩ يونيو هى ثالث رحلة له منذ حرب يونيو ١٩٦٧، ومن الجلسة الأولى للمباحثات مع القيادة السوفيتية كان تركيز جمال عبد الناصر على الجانب العسكرى حيث استكملت القوات المسلحة التدريبات اللازمة لعبور القناة، هكذا تقرر إمداد الدفاع الجوى بشبكة جديدة من الأجهزة الالكترونية، بالإضافة إلى معدات جديدة متطورة لعبور قناة السويس، وصفقة أسلحة يصل ثمنها إلى أربعمائة مليون دولار يتم تخفيض نصف ثمنها عند التسديد، وكل الأسلحة والمعدات الالكترونية تصل إلى مصر قبل نهاية سنة ١٩٧٠ طبقا لجدول زمنى تم الاتفاق عليه.

وبالنسبة لإمداد مصر بعشر طائرات من قاذفات القنابل طويلة المدى فقد تم الاتفاق على تجهيز مطارين فى أسوان ووادى سيدنا تعمل منهما تلك الطائرات، ولكن بشرط أن تظل الطائرات ذاتها فى الاتحاد السوفياتى، على وعد بإرسالها إلى مصر خلال ست ساعات من طلبها.

وكان دافع السوفيات إلى ذلك هو الخشية من أن يؤدى وجود تلك الطائرات فى مصر إلى «مضاعفات دولية» قد تؤدى إلى قيام الولايات المتحدة بإمداد إسرائيل بصواريخ خاصة لمواجهتها.

وفى الجانب السياسى من المباحثات تململ السوفيات فى البداية من اتجاه عبد الناصر لقبول المبادرة الأمريكية «مبادرة روجرز»، على رغم قوله: إنه لا يثق بالمرة فى أنها ستسفر عن شىء، وكان اعتراض بريجنيف منصبا على أن الولايات المتحدة، بعد كل ما دعمت به إسرائيل ستجنى الثمار السياسية من خلال مبادرة تقدمها هى، بعيدا عن المشاورات الرباعية فى نيويورك، أو المشاورات مع الاتحاد السوفياتى. وكذلك تململ السوفيات من الطريقة الخبيثة التى قدمت بها المقترحات الأمريكية.

ولكن عبد الناصر طمأن السوفيات بأنه شخصيا لا يرى فى المبادرة سوى أنها رجوع من الأمريكيين إلى الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنه، ورجوعهم كذلك عن المفاوضات المباشرة مع إسرائيل بعد أن كانوا مصرين عليها.

ولكن السوفيات لم يكن لهم اعتراض على المبادرة الأمريكية من حيث المضمون، وإنما انصب اعتراضهم على الشكل فقط.

وقد انتهت مشاورات وزير الخارجية محمود رياض وأندريه غروميكو إلى بلورة موقف سياسى لم يخرج عن الخطوط التى كانت وزارة الخارجية المصرية قد أعدتها أصلا فى مذكرة لها بالقاهرة بتاريخ ٢٧ يونيو.

□□□

obeikandl.com